منذ ألف عام

للاستاذ علي عبد الرازق

يوجد بين حياة الشرق في العصر الحاضر، وبين حياته منذ ألف عام مضت، نوع من التشابه يستوقف النظر. وقد يكون في دراسة هذا التشابه واستقصاء البحث فيه لذة ومتاع للنفس؛ وقد يكون فيه مع ذلك فائدة للعلم

وما ندعي أننا نستطيع الآن أن نستوفي جوانب هذا البحث أو نلم به الماما واسعة، وانما نريد أن نفتح هذا الباب للباحثين لعلهم يجدون فيه خيرا كثيرا من أنواع المتاع وفنون العلم

وفي الحق انه يوجد دائما نوع من التشابه بين صور هذه الحياة الدنيا ماضيها وحاضرها وقديمها وحديثها؛ وما دام الناس هم الناس في جميع العصور، وما دامت كواكب السماء تروح وتغدو في دورة منتظمة لا تبديل فيها منذ وجدت كواكب السماء، وما دامت الأرض هي بعينها الأرض في الماضي والحاضر، فمن الطبيعي أن تتشابه الى حدٍّ ما صور الحياة وأن يحاكي بعض الحوادث بعضا

والذي يقارن بين أي جزء من أجزاء التاريخ وبين أي جزء آخر منه لا يعجز عن أن يتبين بينهما مظاهر من التشابه والتماثل؛ ولكن التشابه الذي يجده الناظر بين حياتنا الحاضرة وبين الحياة من ألف عام ليس هو من هذا النوع الذي يلحظ بين جميع أجزاء الحياة وجميع مظاهرها. وليس هو من القلة بحيث لا يستلفت النظر ولا يثير رغبة البحث. فالتشابه هنا ظاهر وقوي يكاد يجعلهما صورة واحدة لعصر واحد

على أنه مع ظهوره وقوته لا يبلغ أن يكون دليلا على تماثل العصرين من جميع الوجوه، ولا على اتفاق العصرين في جميع الصفات والخصائص؛ وهو لذلك لا يبلغ أن يكون دليلاً قاطعاً على صحة مايذهب اليه بعض الباحثين من أن التاريخ يعود بنفسه

منذ عام توفي المرحوم أحمد شوقي أمير الشعراء؛ ومنذ ألف عام توفي أبو الطيب المتنبي؛ وبين الرجلين من التماثل ما يشبه أن يكون مثلاً صادقاً لرجعة التاريخ، فقد يمكن القول بأن متنبي القرن الرابع كان شوقي القرن الرابع عشر، وبأن شوقي القرن الرابع عشر كان هو متنبي القرن الرابع!

دع عنك ديباجة الشعر وما بين الشاعرين في ذلك من تواءٍ جد قريب؛ وانظر الى ما أحاط بالرجلين من ظروف وملابسات فقد كان عصر المتنبي عصراً داوياً بالشعر زاهياً بالكثير من الشعراء، ولكن شعر المتنبي قد غطى على أكثر تلك الأصوات الداوية؛ وقد غمر اسم المتنبي أكثر تلك الأسماء. فكان كما قال عن نفسه:

أنا الصائح المحكي والآخر الصدى

وكذلك كان شوقي في عصر يدوي بالشعر ويزخر بالشعراء ففلج عليهم شوقي باسمه وبشعره، وجاءه الشعراء من كل صوب يبايعونه بأمارة الشعر

وقد كان المتنبي شاعراً مداحاً وكذلك كان شوقي؛ والمتنبي كان يتنقل بمدائحه من جناب الى جناب، ومن بلد الى بلد وكذلك فعل شوقي

ولقد أخلص المتنبي في مديح سيف الدولة فأفاض عليه من مدائحه الخالدة خلوداً لا يبلى؛ وما كان سيف الدولة لولا المتنبي الا ملكا كسائر الملوك

وكذلك أخلص شوقي في مديح سمو الخديو عباس الثاني، فأفاض عليه من مدائحه الخالدة خلوداً لا يبلى، وسجل اسمه مشرقاً وضاء في سماء المجد حيث لا يلمع كثير من الأسماء الطنانة

اننا لنأسف اذ لا نجد بين أيدينا صورة مفصلة لجوانب الحياة الاجتماعية في مصر منذ ألف عام لنستطيع أن نقارن بينها وبين جوانب حياتنا الاجتماعية الحاضرة لنستخلص ما يكون بين الحياتين من تماثل قريب أو بعيد

على أن ذلك لا يمنعنا من أن ندرك ما بين الحياتين اجمالاً من تشابه قوي الى حد يثير العجب؛ فلقد ترك المتنبي وصفا واضحا وان كان مجملاً للحياة في مصر أيام عرفها المتنبي واتصل فيها بحمية كافور الأخشيدي. ولعمري لا يزال أكثر ما قاله المتنبي في ذلك أو كله ينطبق على حياتنا الحاضرة ويصفها وصفا صادقاً:

نامت نواظير مصر عن ثعالبها ... فقد بشمن وما تفنى العناقيد

وكم ذا بمصر من المضحكات ... ولكنه ضحك كالبكا